التضامن بين الرجل والمرأة

ترتفع فى هـذا العصر أصوات داعية إلى التضامن بين الرجل والمرأة ، وكثيرون من أصحاب هذه الدعوة يحسبونها شيئا جديدا ، أو أسلوبا مبتكرا من أساليب إصلاح المجتمع ، أو أمنية عز عليهم تحقيقها فى حياة المصريين خاصة والشرقيين عامة ، ويعدون هذا التضامن ميزة اختصت بهـا المدنية الحديثة دون المدنية القديمة .

وهم فى هذا يخطئون فهم التقاليد الشرقية والإسلامية ، إذ يحسبونها تقضى بالفصل بين الجنسين ، أو بحرمان المرأة من مشاركة الرجل فى تدبير شئون الحياة .

وفى طبيعة الأحياء انعطاف نلاحظه بين الذكر والأنثى فى عهود الطفولة الأولى ، فنحن نرى الطفل الصغير يعطفه على الطفلة الصغيرة ميل غريزى كلمـا اجتمع الأطفال من الجنسين على لعبة يتنافسون فيها ؛ ومثل هـذا الميل نلاحظه أيضا فى صغار الأحياء من الأجناس الأخرى .

وقد نسأل : ماذا يمكن أن يكون هذا الانعطاف وهذا الميل ، بل ماذا يصح أن نسميهما ؟ ان أظهر ما فى المسألة أنهما تضامن اقتضته الفطرة فى المرتبـة الأولى ، ثم اقتضاه الشعور بالحاجة فى المرتبة الثانية ؛ وكما يكون هذا الانعطاف ملاحظا فى الأطفال اللاعبين حول البيت يكون ملاحظا أيضا فى الأطفال المتجاورين فى الدرس بين يدى المعـلم أو المعلمة ؛ ولعل المشرفين على رياض الأطفال يحدون من تجربة هذه الملاحظة الشيء الكثير .

وحينما ينتقل الناشئون الصغار فى سبيل الحياة من هذه المرحلة الى المرحلة التى ينمو فيها شعور البنت أو الولد بأنه مخلوق اختصه الله باستعدادات فطرية تميزه عن الآخر . يبـدأ فى الظهور ما يتراءى كأنه انقباض يعزل أحدهما عن الآخر ، وهو فى الحقيقة هذه السجية التى نسميها الحياء ، ولكن هذا الحياء ليس إلا حجابا يستر وراءه أحاديث النفوس وإحساسات الأفئدة ، وهو أيضا ذلك الحاجز الذى يمنح الأنثى حصانتها الذاتية ، كما يمنح الذكر رهبة الخضوع لمواجسه .

على أن هذه الظاهرة سواء سميناها انقباضا أو حياء ، لا تمنع فى النهاية أن يسلك الذكور والإناث سبيل التضامن لأداء وظيفتهما .

والتضامن بين الرجل والمرأة وجد منذ وجدا، وهو بارز فى حوادث التاريخ من بدايتها الأولى . فقد تبادل آدم وحواء الرأى فيما يأكلان من طعام ، وانتهى هذا التشاور بانصياع الرجل لفكرة المرأة !

فإذا خضنا الأجيال المتعاقبة بعد هذه البداية، ووصلنا إلى حياة العروبة التى نحن متأثرون بها إلى اليوم، أفلا نرى الحياة كلها شركة عادلة بين الجنسين؟ أفلا نرى جهد المرأة واضحا فى التدبير وفى تربية الأطفال تربيـة أخرجت للعروبة أبطالهـا ، وللإسلام أعظم حمـاته ومجاهديه ؟ أليست المرأة العربيـة هى التى أنجبت وربت عمرا وخالدا وأبا عبيدة وسواهم من صفوة الأعلام الخالدين فى التاريخ ؟

ألم تكن زوجات النبى يمددنه بالمعونة ، ويشجعنه على أعباء الجهاد فى سبيل الله ؟

ألم تكن للنساء قدم عالية فى الشعر والنثر كقدم الرجال ؟ وهـذه هى الخنساء وسواها ممن روت أخبارهن كتب الأدب، ألم تكن القيان والنديمات زينة مجالس الخلفاء والأمراء فى مختلف عهود الحكم الإسلامى ، وكان فى لحنهن وتوقيعهن ما يوحى إلى النفوس الجوامح النزوع إلى الفضيلة ؟ أو الفتوة وقبل ذلك ، أى فى صدر الإسلام الأول ، ألم تكن النساء يصحبن رجالهن فى الغزوات والفتوحات، يؤازرونهم ويشجعنهم على المضى فى القتال ؟

ألم تخض أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها غمار الحرب زعيمة وقائدة فى عهد على بن أبى طالب كرم الله وجهه ؟

إنكم لتجدون فى صحيفة المرأة العربية التى احتفظ بها الدهر درة خالدة فى جبين الزمان، أجل الآثار وأحسن الأخبار عن المرأة المسلمة ، وكيف كان لها فضل كبير فى مختلف ميادين الحياة ، من تربية إلى تهذيب إلى شعر إلى غير ذلك ، فليست هى فى تلك العصور بأهون أثرا ولا أقـل استحقاقا للتمجيد والثناء من امرأة أوربا التى جعلها الكاتبون مثلا وقدوة فى هذه الأيام !

ولسنا بهـذا نبخس المرأة الأوربية قدرها ، فقد أجادت حقا فى خدمة الإنسانيـة ولا زالت تقدم للمجتمع أجل الخدمات وأسماها، ولا زالت تكمل مجهود الرجل بما خصها الله به من حنو الأنوثة وعطفها .

ونحن نخرج من هذا القديم وهذا الجديد بأن التضامن بين الجنسين فطرة فطر الله الناس عليها ، وليس هو بالأمر الذى تنشئه إنشاء .

هو حقيقة قائمة ، وضرورة طبيعية لا فضل لأحد فيها ، ولا يمتاز فى هـذا التضامن شعب على شعب وإن اختلفت صوره وتعددت مظاهره ، وتفاوتت ثمراته ، وتسابقت الأمم فى تنظيمه وتنسيقه .

وهذا التضامن سائد ، مهما تكن علاقة الجنسين ، تراه بين الأخ وأخته ، والابن وأمه ، والأب وابنته ، والقريب وقريبته ، والزميل وزميلته ، وأخيرا تأتى أروع صور هذا التضامن : وهى الزواج ، فهو أوثق رابط بين الذكر والأنثى ، وهو الوسيلة إلى تنمية الجنس البشرى ودعم الحياة الإنسانية وترقيتها وتوفير الخير والسعادة فيها .

* * *

إن السعادة التى ينشدها المجتمع من تضامن الجنسين إنما تتم بالزواج ، وبالزواج وحده . أى أنها لا تتم بما يدعو إليه دعاة التجديد الزائف من إباحة اختلاط الفتى بالفتاة فى غير ما حصانة ، وإيجاد صداقة مطلقة بينهما قبل الزواج ، فقد أثبتت آلاف التجارب أن هذا الاختلاط الإباحى هو أسوأ مقدمة للزواج ، بل هو من أهم ما يعطل الزواج ، إذ يرى فيه الشاب والشابة غنى مؤقتا عن الزوجية ، ويكتفيان فى أغلب الأمر — أو يكتفى أحدهما — بما نال من متعة هذا الاختلاط ولذته ، ثم يبحث من متعة أخرى فى اختلاط آخر ، وهكذا يقنع الجنسان من صلتهما المشتركة بهذه الجلسات . وإذا كان عدد الأعزاب والعوانس عندنا قد بدأ يتكاثر فإن أكبر الذنب فى ذلك انما يرجع الى هذه البدعة المدمرة للأخلاق وللمجتمع ، بدعة السماح للفتاة بمخالطة الفتى ومصاحبته الى دور اللهو ، أو الى حيث يختليان !

واستطيع أن أجزم بأن حوادث هذا الاختلاط ، المعنون بالتمهيد للزواج ، لا تنتهى بعقد الزواج الا بنسبة قليلة جدا ، أما البقية فتنتهى بالفشل ، وببوار سوق الفتاة ، لما يكون قد عرف من اسرارها ، وما يكون قد شاع عنها من اشاعات ، ثم باضراب الفتى نفسه عن الزواج اطلاقا خشية أن تكون جميع الفتيات على غرار من رآهن وخالطهن واستمتع منهن بالصحبة والقبلة وما وراءهما !

لقد كنا قبل بدعة الاختلاط نتحدث عن حياء العذارى ، أما الآن فنحن نفتقده فلا نجده إلا فى القليل النادر ، وكنا قبل الاختلاط نعرف أن البنت محكومة بأبيها وأخيها وحدهما ، لا يحق لها مخاطبة سواهما من الذكور ، أما الآن ، وقد ساغ لها أن تغشى مجالس الرجال وحفلاتهم فلم يبق لها على الفتاة من سلطان ! كذلك حال كثير من الأزواج مع زوجاتهم ، فقوامة الرجل على المرأة لم تعد كاملة ، بل هى آخذة فى الاحتضار والزوال ، وهذه القوامة لم يشرعها الله عبثا ، وإنما هى لازمة لاستمرار التعاون والتضامن بين الجنسين ،

وكل زواج لا تسوده القوامة فاسد ، و إذا فسد الزواج فلا تضامن ؛ وان تستفيد حياة البشر بعد ذلك نموا ولا رفاهية ولا سعادة .

فعلى الذين يطمحون الى تنظيم التضامن بين الجنسين و إفادة المجتمع منه — ولا أقول إيجاد هذا التضامن فهو موجود بالفطرة كما قدمنا — أن يعمدوا الى غايتهم هذه من طريقها الطبيعى ، وهو تنظيم الزواج وتشجيعه . والسبيل الى ذلك هى إقامة الحدود بين الرجل والمرأة ، لا ترك الفريقين ينساب بعضهما على بعض دون ضابط ولا حساب . يجب أن يكون للرجل إعداد ، وللمرأة إعداد ، كل لما خلق له ، فلسنا مأزومين فى عدد المحامين والمهندسين والضباط حتى نخلق من النساء محاميات ومهندسات وضابطات ، إنما نريدهن زوجات وأمهات ، لأن الرجل لا يستطيع أن يكون أما ! !

والزواج ، كما قلت ، هو مظهر التضامن بين الجنسين ووسيلته ، فلا نظام لمجتمع لم تنظم فيه أمور الزواج .

لنحصن الجنسين أولا بحصانة من الدين ، ثم لنعلم الفتاة التى نعدها للزوجية والأمومة التعليم الذى يلزم لهاتين المهمتين ، ويمكنها من خدمة البيت على أحسن مثال .

وكل شىء فى البيت يحتاج إلى معرفة ، النظافة والتنسيق وتدبير الصرف وتكوين الأبناء ماديا وصحيا وخلقيا ، وحسن القيام بواجبات الزوجية — كل ذلك لا يستطاع إلا بالمعرفة ، والمعرفة مكسوبة بالتعلم ، فلا بد إذن للمرأة فى ظل البيت أن تكون متعلمة ، ولكن أى تعليم هذا الذى لا تستغنى عنه ؟ تدبير المنزل ، وتربية الأولاد ، وما يقتضيه حسن التصرف والاعتدال فيه من معارف خاصة ، وما تستوجبه سياسة نفوس الأطفال من الآداب والتعاليم الدينية والاجتماعية ، وما تستلزمه طبيعة العصر من الثقافة العامة المناسبة للمرأة ، وكل شىء بعد ذلك إن كان حسنا فهو نافلة وإن كان سيئا فهو خطيئة .

وقد تواجه المرأة من ضرورات الحياة ما يكلفها عملا من أعمال الرجل أو قريبا منها ، كالوظيفة مثلا خارج المنزل ، أو التجارة تافهة كانت أو كبيرة ، أو الصناعة شاقة كانت أو سهلة ؛ فإذا واجهتها ضرورة الحياة بشىء من ذلك كان لها أن تباشره ، بل لقد توجب عليها تعاليم الدين أن تنهض إليه كلما سدت طريقها إلى سواه .